

بين إشراق الروح وإكراهات الجسد... أدب الرحلة في الكتابات الخديمية

بقلم الباحث: عبد الله غاي²³¹

يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ بِكُلِّ ثِقَةٍ إِنَّ مَا يُصْطَلَحُ عَلَيْهِ الْآنَ بِأَدَبِ الرَّحْلَةِ يُمَثِّلُ رَكِيزَةً قَوِيَّةً مِنْ رَكَائِزِ التُّرَاثِ الْخَدِيمِيِّ الْأَدَبِيِّ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ غِزَارَةِ هَذِهِ الْمَادَّةِ فَلَمْ أَرِ مِنْ أَعْتَى بِهَا مِنَ الدَّرَاسِينَ النُّقَّادِ، أَوْ أَشَارَ إِلَيْهَا بِشَكْلِ مِنْ الْأَشْكَالِ فِي دِرَاسَاتِهِ، حَيْثُ تُخْتَزَلُ صُورَةٌ نَتَاجُ الشَّيْخِ ضَمَّنَ الْأَغْرَاضِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ فِي الشَّعْرِ الدِّيْنِيِّ؛ وَالمَدِيحِ النَّبَوِيِّ. إِلَّا أَنَّ الْفَاحِصَ لِنُصُوصِ الشَّيْخِ وَالمُتَتَّبِعَ لِكِتَابَاتِهِ يَلْحَظُ أَنَّهُ حَازَ قِصَبَ السَّبْقِ فِي هَذَا المِضْمَارِ، وَاسْتَوْلَى عَلَى أَمَدِ الحُسْنِ فِي صِنْعَةِ الإِبْدَاعِ. فَقَدْ وَظَّفَ السَّرْدَ فِي حِكَايَاتِ رِحْلَتِهِ، بِاعْتِبَارِهِ مُكَوَّنٌ أَسَاسِيًّا فِي النِّصِّ الرَّحْلِيِّ، ذَلِكَ أَنَّهُ القَنَاةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي تُمَكِّنُ مِنَ احْتِوَاءِ فِعْلِ السَّفَرِ وَنَقْلِهِ إِلَى المُنْتَلَقِيِّ نَقْلًا يَطَابِقُ الوَاقِعَ وَالحَقِيقَةَ، بِيَدِ أَنَّهُ ضَمَّنَ نُصُوصَهُ الشَّعْرِيَّةَ إِشَارَاتٍ بَاهِتَةٍ تَرْتَبِطُ بِالرَّحْلَةِ. الشَّيْءُ الَّذِي يَدْفَعُنَا إِلَى طَرَحِ التَّسْأُلَاتِ الآتِيَةِ: مَا هِيَ حُدُودُ التَّأْوِيلِ لِلنُّصُوصِ الْخَدِيمِيَّةِ وَفِقْ مَقَارِبَةِ أَدَبِ الرَّحْلَةِ؟ وَهَلْ يُمْكِنُ حَصْرُ إِنتَاجِ الشَّعْرِيِّ فِي المَدِيحِ النَّبَوِيِّ فَقَطْ؟ هَلْ مِنْ حُضُورِ لَأَدَبِ الرَّحْلَةِ فِي نُصُوصِ الْأَدْبَاءِ السَّنْغَالِيِّينَ الْآخَرِينَ؟

لَقَدْ أَوْلَى النُّقْدُ الحَدِيثُ عَنَاقِيَةً خَاصَّةً لِلنِّصِّ الرَّحْلِيِّ، ذَلِكَ أَنَّهُ فِضَاءٌ شَاسِعٌ وَمَجَالٌ رَحْبٌ يَصْلَحُ لِمُخْتَلَفِ المَقَارِبَاتِ، وَلِهَذَا "يُمْكِنُ لِلْبَاحِثِ أَنْ يَدْرُسَ الرَّحْلَةَ وَفِقْ مَقَارِبَاتٍ وَزَوَايَا مُخْتَلَفَةٍ: مِنْ زَاوِيَةٍ كَوْنَهَا مَصْدَرٌ لِلتَّأْرِيخِ، وَأَثَرٌ أَدَبِيًّا وَفِكْرِيًّا وَفَنِيًّا، وَوَثِيقَةٌ سَوْسِيُولُوجِيَّةٌ، وَمَصْدَرٌ لِتَتَّبِعَ الذَّهْنِيَّاتِ وَالعَقْلِيَّاتِ

²³¹ طالب باحث بمؤسسة دار الحديث الحسنية - الرباط.

عَبْرَ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ." (232) وَقَدْ شَجَعِ انْتِشَارُ المَنَاحِجِ النُّقْدِيَّةِ الحَدِيثَةِ البَاحِثِينَ عَلَى الإِهْتِمَامِ بِبِنْيَاتِ النُّصُوصِ الرَّحْلِيَِّّةِ وَمَقُومَاتِ أَدَبِيَّتِهَا وَتَجَنُّسِهَا، وَمُحَاوَلَةِ حَصْرِ الخِصَائِصِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا خِطَابُ السَّرْدِ الرَّحْلِيِّ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ خِطَابَاتِ النُّصُوصِ السَّرْدِيَّةِ. إِلَّا أَنَّ التَّجْرِبَةَ فِي البِيئَةِ السَّنْغَالِيَّةِ تَبْقَى ضَائِلَةً، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَوَاكِبَةِ الأَدَبِ السَّنْغَالِيِّ العَرَبِيِّ لِهَذَا النِّصِّ الأَدَبِيِّ، مِثْلَ الرَّحْلَةِ الحِجَازِيَّةِ (233) لِلسَّيِّدِ عَمْرِو الفُوتِيِّ تَالٍ (ت. 1864م)، وَكِتَابِ الشَّرِيفِ مُحَمَّدِ شَمْسِ الدِّينِ بِنِ الشَّيْخِ المَحْفُوظِ الكَاسَمَنْسِيِّ "هُدَى المُهْتَدِينَ المَسْمُومِ بِحَيَاةِ الشَّرِيفِ مُحَمَّدِ شَمْسِ الدِّينِ" الَّذِي سَافَرَ إِلَى بِلَادِ البَرْتغَالِيِّينَ سَنَةَ 1340هـ/1922م (234)، وَقِصِيدَةِ الشَّيْخِ عَلِيِّ فِي الغَامِبِيِّ "الرَّحْلَةُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ" (235) فِي 60 بَيْتًا، وَكِتَابِ أَحْمَدِ دِمِّ السُّوَكُونِيِّ (ت. 1973م) "عُنُوانِ الطَّرَازِ فِي الرَّحْلَةِ إِلَى الحِجَازِ" (236)، وَرِحَالَاتِ السَّفِيرِ دُودِ سِكِّ المَشْهُورِ بِابْنِ المِقْدَادِ (237)

(232) محمد العاقل. "الأنا الإسلامي والآخر في الرحلات السفارية-رحلة ابن عثمان الكناسي نموذجا" ضمن أدب الرحلة: جدلية الأنا والآخر في عالم متغير، تيسيق خالد التوزاني، ط2. (عمان: دار كنوز المعرفة، 2020)، 218.

(233) إلى وقت كتابة هذه الأسطر، فإن هذه الرحلة التي دونها أحد الموريتانيين بلسان الشيخ صاحب الرحلة ما زالت مخطوطة، وقد أخبرني أحد الإخوة أنه يشتغل في تحقيق المخطوط، وعسى أن يرى النور قريبا بإذن الله.

(234) عامر صامب. الأدب السنغالي العربي. جزآن. ط2. (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978)، 327-329/1.

(235) عامر صامب. الأدب السنغالي العربي، 1/354.

(236) عامر صامب. الأدب السنغالي العربي، 1/356.

(237) عامر صامب. الأدب السنغالي العربي، 1/92.

المسارعة في التمييز بين السيرة الذاتية التي تتناول عادةً مجمل حياة المؤلف الراوي، وبين النص الرحلي الذي لا يتناول إلا مدةً محددةً من حياة المؤلف، وهي المدة التي قضاها في السفر.

ولكيلا ننع في فخ الإسقاط ولي أعناق النصوص، ننبه أن الرحلة عند الشيخ الخديم⁽²⁴¹⁾ تختلف تماما عن الرحلات المعهودة أو كما تقتضيها معايير أدب الرحلة من تعريف وخصائص. فخصيصة الشيخ الخديم شخصيصة إبداعية في المتغيرات، ومحافظة في الثوابت، فهو منفرد في أسلوب الدعوة والتعليم والأدب، وقد شق نفسه في ذلك طريقه خاصا. فإن خصائص أدب الرحلة قد لا تتضافر في نصوصه من البناء السردى، والخطاطات والمسارات، وغلبة الوصف الذي يتفق الغربيون والعرب على أنه أكثر ما يسود في السرد الرحلي، ذلك أن رحلته لم تكن تجاري ولا سياحي ولا سفاري ولا سياسي بل كانت رحلة منفى قسري،

وكذلك رحلة الحاج الشيخ أحمد امباكي المشهور بغايندي فأطم (ت. 1989م) والتي حررها سرين عباس بوضو،

ينظر: **الأدب السنغالي العربي**، 321/2.

⁽²⁴¹⁾ اقتضى المقام أن لا نشتغل في السرد التاريخي للرحلة، إذ يهنا هنا دراسة بنية الرحلة من الناحية الأسلوبية، ومن أراد التفصيل تاريخيا فليرجع إلى مظانها؛ الكتب المتخصصة في ترجمة الشيخ، كجزء الشكور للشيخ الخديم، وكتاب **من الباقي الخديم في سيرة الشيخ الخديم**، للشيخ محمد البشير امباكي ابن الشيخ الخديم، وإرواء **النديم من عذب حب الخديم** لمحمد الأمين جوب الدكاني، وكتاب **دليل الحائر في غيبة الشيخ بالجزائر**، للشيخ محمد الأمين بار امباكي ابن الشيخ الخديم، وكتاب **الشيخ أحمد بامبا امباكي رضي الله عنه عبد الله وخديم رسوله ﷺ**؛ دراسة تشتمل على سيرته الطاهرة وأهم أحداث حياته المباركة. دائرة روض الرياحين، سلسلة من ثمرات الروض (10)، دراسات حول المريدية (ع3). (بيروت: دار الفكر، 2022). إضافة إلى منظومتي سرين موسى كاه باللغة الولفية: **جزء الشكور البحري والبري**.

(ت. 1934م) المحفوظة في وثائق أندري [Ndar]، وكذا رحلات شيخ الإسلام إبراهيم نياس⁽²³⁸⁾ (ت. 1975م)، إضافة إلى شعر الرحلة في قصائد القاضي مجخت كل (ت. 1901م) إذ يذكر المحطات التي يراها المسافر بالقطار من دكار إلى اندر⁽²³⁹⁾، إلى غيرها من الرحلات المنثورة في الدواوين والمصنفات⁽²⁴⁰⁾. ومع ذلك يقتضي المقام

⁽²³⁸⁾ للتفصيل يراجع البحثان: (1) انجاي، محمد إبراهيم. **أدب الرحلة في الشعر السنغالي الشيخ إبراهيم انياس نموذجا**. بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة شيخ أنت جوب-دكار، الموسم الجامعي 2017-2018، إشراف الدكتور مغي انجاي والدكتور عثمان جاه. (2) إدقير، عبد الله. **الرحلة الحجية ودورها في تمتين العلاقة الروحية والعلمية بين المغرب والسنغال -رحلة الشيخ إبراهيم نياس نموذجا-**، بحث مقدم لنيل شهادة الماستر في "العلاقات الدينية والثقافية بين المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء"، جامعة ابن زهر، أكادير، إشراف الأستاذ رشيد كناني، الموسم الجامعي 2022-2023.

⁽²³⁹⁾ عامر صامب. **الأدب السنغالي العربي**، 80/2.

⁽²⁴⁰⁾ مثل رحلة الحج الشهيرة في 1928م التي تزعمها الشيخ مأم شيخ أنت بروم غاوان وسرين امباكي بوضو والشيخ محمد الفاضل امباكي، وكان الوفد يتكون من عشرة أشخاص. وقد وثق الرحلة الحاج محمد الفاضل، وحررها الحاج محمد المحمود انيانغ نقلا من خط يد المؤلف. وخلال مرورهم بفرنسا سيجري مأم شيخ أنت مقابلة مع الجريدة الفرنسية المارسييلية **Le Petit Marseillais**، التي نشرت المقابلة في عددها الصادر ليوم 18 مارس 1928م، كما ضمن أحداث الرحلة سرين موسى كاه في مرثيته لسرين امباكي بوضو. (رضي الله عنهم أجمعين).

ضمنَ برنامجه التجديدي والدعوي وجزء من المشروع؛⁽²⁴²⁾

سَبَّ غَيْبَتِي أَنْ اللَّهَ

أَرَادَ أَنْ أَنَالَ مِنْهُ جَاهَا

وَأَنْ أَكُونَ شَافِعَ لِقَوْمِي

وَأَنْ أَكُونَ خَادِمَ فِي الدَّوْمِ

فَفَرَضَ الحُصُولَ عَلَى مَقَامٍ أَوْ لِقَبِ "الخادم" غَيْبَ الشَّيْخِ مِنَ الْاهْتِمَامِ بِوَصْفِ الْأَمَاكِنِ وَالْأَشْيَاءِ (البنائيات، الخيول، القطار، السفينة..) بخلاف مَا نَجَدَهُ فِي نصوصِ الرَّحَلَاتِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، فَوُصِفَهُ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْمَشَاهِدِ وَالْأَحْدَاثِ فِي سَرْدٍ مَخْتَزِلٍ، وَلَعَلَّ سَبَبَ ذَلِكَ اهْتِمَامُهُ بِاقتناءِ الْأَوْقَاتِ فِي الذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ وَمُنَاجَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالْكِتَابَةِ، وَلَكِنْ هَلْ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَغْيِيبِ فَنِيَّةِ النَّصِ الرَّحْلِيِّ عِنْدَ الشَّيْخِ؟

شعرية الرحلة مدخلا للتجديد الأدبي:

إن قضية القديم والحديث [مصطلح نقدي عربي قديم] في الأدب السنغالي العربي تدرس من جانب التقليد والتجديد. فالقلدون هم الذين ينشدون قصائدَهم على منوالِ الجاهلية معنًى وأسلوباً، فيقفون على الأطلال، ويكُونُ عَلَى الرُّسُومِ الدَّوَارِسَ، والرُّبُوعِ الْخَوَالِي، ونلاحظُ أَغْلَبَ عَتَابَتِهِمُ النَّصِيَّةَ وَمَطَالِعَهُمُ الشَّعْرِيَّةَ تَسْتَهْلِ بِمَقْدَمَةِ طَلَلِيَّةٍ، أَوْ غَزَلِيَّةٍ، أَوْ الْحَنِينِ وَالشُّوقِ، بَيْنَمَا يَتَجَاوَزُ أَهْلُ التَّجْدِيدِ -وَفِي مَقْدَمَتِهِمُ الشَّيْخُ الْخَدِيمَ- تِلْكَ الْعَتَابَاتِ النَّصِيَّةَ. وَقَدْ

صَبَّغَ الشَّيْخُ شَعْرَهُ بِمَلَامِحِ فَنِيَّةٍ، [الملمح التجديدي الأول] كالدخولِ مباشرة في الموضوع دون مُقَدِّمَاتٍ وَمُهَدَّاتٍ، وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي أَهَمِّ نصوصه الرَّحْلِيَّةِ فِي الْغَيْبَةِ الْبَحْرِيَّةِ، وَهُوَ قَصِيدَةُ ﴿أَسِيرٌ﴾؛ حَيْثُ يَقُولُ:⁽²⁴³⁾

أَسِيرٌ مَعَ الْأَبْرَارِ حِينَ أُسِيرُ

وِظَنُّ الْعِدَى أَنِّي هُنَاكَ أُسِيرُ

مَسِيرِي مَعَ الْأَخْيَارِ لِلَّهِ بِالْتَّبِي

وَمَا لِي لِيغَيْرِ اللَّهِ عَوْضَ مَسِيرِ

وقد بدأ نظمَ هذه القصيدة في أيامه في اندر، والراجح أنه أكملها في المنفى، وهي قصيدة رائية رائعة راتقة تصل إلى ثمانية وأربعين بيتاً⁽²⁴⁴⁾، صيغت على البحر الطويل، برويِّ الرأ، مع قافية مُصْرَعَةٍ وَمُرَدَّفَةٍ، فَهِيَ مَفْعَمَةٌ بِالتَّقْنِيَّاتِ الْحَجَاجِيَّةِ الَّتِي وَظَفَهَا الشَّيْخُ لِتَفْنِيدِ مَزَايِمِ الْأَعْدَاءِ "وِظَنُّوا الظَّنُونَا وَالظَّنُونُ غَرُورٌ" ثم بيان فشل مكائدهم وحيلهم في قوله:⁽²⁴⁵⁾

يَظُنُونَنِي وَقَتَ اغْتِرَابِي لَدَيْهِمْ

أَسِيرٌ لَهُمْ وَالْكَلُّ ثُمَّ يَخُورُ

لذا يعتبرها الناقد عامر صامب من أجمل قصائد الشيخ وأروعها لفظاً ومعنى، فهي تعتمد على بساطة الأسلوب (بخلاف المدرسة التقليدية) ورونقة السبك

⁽²⁴³⁾ الشيخ أحمد بمب امباكي، المشهور بالشيخ الخديم.

قصيدة "أسير مع الأبرار".

⁽²⁴⁴⁾ ينظر: الشيخ محمد الأمين جوبّ الدغاني (ت).

1968م). إرواء التديم من عذب حب الخديم. دراسة وتحقيق: مجموعة من الباحثين. منشورات الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين بالمغرب. (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1439هـ/2017م)، 126.

⁽²⁴⁵⁾ من قصيدة (أسير مع الأبرار).

⁽²⁴²⁾ الشيخ أحمد بمب امباكي، المشهور بالشيخ الخديم. جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف. دراسة وتحقيق: محمد المرتضى بوضو ومأم مور امباكي حمدي. منشورات الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين، ط1.

(الرباط: دار الأمان، 2022)، 40.

وإصابة المعنى بصيغة السرد الشعري والحبك القصصي، يقول: "فبين مناهجها الفني والتقسيم الثلاثي للقصيدة التقليدية بون شاشع؛ أين منها والتشبيب والبكا على الأطلال؟ حتى جرى بعض الشعراء الصوفيين السنغاليين مجرى الشعراء [العرب الفحول]، فبكوا وأبكوا لدى المنازل بعد ارتحال الطعائن والحبوبات. وأن وسعنا أن نقر للحاج مالك سه والقاضي مجخت كل وغيرها بأنهم قديرون [على مجارة العرب الأوائل، حيث وصفوا] (246) منازل ومدن وأطلالاً زمان كانت السنغال تعرف الحياة البدوية والقبائل المتجولة، وقد يقفون أمام ديار طمست لزب الأيل فيها ويغرد الهديل لفقده حمامته. وقد يقفون في موريتانيا منازل هكذا؛ فبكوا ذكرى من سلمى وليلى ودعد. لكن أظن أن كل ذلك ليس إلا نوع رمزيًا لوصف الدنيا وزخرفها وللزهد فيها. ولأ نرى شيئاً شبيهاً بذلك عند الشيخ أحمد بمب إذ هو إذا بدأ قصيدة دخل في صميم موضوعه.. (247) ولا شك أن هذا تجديد شعري،

وقديما قال أبو نواس ساخرا عن النمط القديم:

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسٍ

وَاقِفًا ، مَا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسَ

فأنكر النسيب، وزعموا أن أول من فتح هذا الباب وفتق هذا المعنى (الاستهلال بالخمريات) هو أبو نواس بقوله: (248)

لَا تَبْكُ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبُ إِلَى هِنْدٍ

وَأَشْرَبَ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ

أما الملمح الثاني فهو إضافة الخصوصيات الإفريقية: وأعني بذلك إبراز المشاعر والأحاسيس النابعة من الحياة الواقعية، المنبثقة عن التجربة والممارسة، وذلك أن المدرسة التقليدية اعتمدت على وصف أحاسيس ومشاعر لم يعايشها ولم يشاهدها - وهو اتجاه أغلب الشعراء السنغاليين - كما في وصف الأطلال والدمن والمنازل الدارسة، أو وصف غزل لأسماء لا تعكس الهوية والمسميات الإفريقية، كدعد وهند وسلمى، أو الأماكن ك "سلم" أو كاظمة، فجاء اتجاه الشيخ وهو يعلن مبدأ الاستقلالية في الاستهلال بأن يضفي قصائدها بخصوصيات توافق الواقع المعيش، وتظهر هذه الخصوصيات كثيرا في أشعار الشيخ؛ كما يقول في إحدى قصائده المطرزة بآية: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ (الإسراء: 65) وهي قصيدة ذكر فيها أهم الأماكن التي مرَّ بها أو قام فيها في الغيبة البحرية مع ذكر شيء مما قاده الله له في كل مكان تحدثنا بالنعم: (249)

أَيْسَ مِنِّْي اللَّهُ عِنْدَ "جِيُول"

إِبْلَيْسَ إِذْ نَادَيْتَهُ بِبَا «وَلِي»

نَضَى لِغَيْرِ اللَّهِ قَبْلَ فِي "أَنْدَر"

بِأَهْلِ بَدْرِ الْأَسْوَدِ كَدْرِي

نَضَى لِغَيْرِ اللَّهِ فِي "أَنْدَكَار"

كُلُّ أَدَى لِي جَرَّهُ مَكَار

تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان. ط.1. (القاهرة:

مكتبة الخانجي، 2000)، 1/368.

(249) قصيدة "أيس مني.." ملحقة ضمن جزاء الشكور

الطوف، ص111.

(246) اضطراب في التعبير أو خطأ مطبعي بنقص سطر في الفقرة، وما بين المعقوفتين من وضعنا.

(247) عامر صامب، الأدب السنغالي العربي، 2/257.

(248) ينظر: ابن رشيق، أبو على الحسن القيرواني الأزدي

(ت. 463هـ). العمدة في صناعة الشعر ونقده. جزآن.

بَرَأْنِي اللَّهُ لَدَى "كُنَّاكِرٍ"

مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِلَى الْمَنَّاكِرِ

فهذه التَّطَوُّافَةُ الجميلة في المحطات تعكس خريطة مطابقة لمسار الشيخ، تكفي لأن ترسم رسومات وصور وخرائط، ولا شك أن هذه لديها أهميتها البالغة في النصِّ الرحلي، ويمكن أن نسميها بعلامات غير لغوية تساهم بشكل كبير في استنطاق النصِّ لِاسْتِخْرَاجِ مَكْنُونَاتِ صُدْفِهِ وَجَوَاهِرِ دَرَرِهِ.

يعكس ما تقدم، كيف استعمل الشيخُ الرحلةَ مدخلاً لاتجاهه الفني⁽²⁵⁰⁾، من خلال الاستغناء بالمقدمات ثم وصفه الأماكن الجغرافية، موحياً إلى استقلاليته الأدبية، وهو استقلال سيرسَّمه تلاميذه فيما بعد، حتى نجد الشيخ إبراهيم جُوبَ المَشْعَرِي يصرخ مفتخراً في مدح شيخه ومبرِّزا خصوصيته الأدبية:⁽²⁵¹⁾

مَا لِي بِبَغْدَادَ شَوْقٌ لَا وَلَا فَاسٍ

لَكِنْ بِرُؤْيَا "جُلْفٍ" قَدْ بَعَثَ أَنْفَاسِي

الرحلة والتجربة الشعرية: "ثنائية البحر والبر"⁽²⁵²⁾

ارتبط البحر والبرُّ "الصحراء" قديماً وحديثاً بمجموعة من التمثلات في المخيال الشعري، فإذا كان البحر يمثل الحرية والجمال والوجود بشكله اللامتناهي عند الرومانسيين، فإنه أيضاً يرتبط بمعاني الغربة والته والضياع والمغامرة، ويعكس في الذاكرة الإنسانية بالخروج والإخراج ومأساة الرحيل، ولعلَّ هذا الاستعمال الأخير هو الراجح في كتابات الشيخ الخديم، فثنائية البحر والبر طاغية في قصائده، إذ يكفي إجراء مسح سريع على قصيدة مثل "مَقَدِّمَاتُ الْأَمْدَاحِ فِي مَزَايَا الْمَفْتَاحِ" للوقوف على معجم البحر بعشرات المرات، وهو بدلالته السيمائية مرتبط بنفيه إلى غابون، فيقول: "وَحَرَجْتُ مِنْهَا [= دكار، يوم السبت 21 سبتمبر 1895م] إِلَى سَفِينَةِ الْبَحْرِ الَّتِي كَفَّانِي بِهَا الْكَافِي الْمَمِيْتُ ذَوِي الدَّحْرِ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى الْجَزِيرَةِ "كَبِك" Gabon [في 2 أكتوبر 1895م] الشَّهْرَةَ، وَشَقَاوَةَ أَهْلِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَعِنْدَ أَحِبَّاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ مَشْهُورَةٍ، وَمَكَّتْ فِيهَا مَدَّةً غَيْرَ طَوِيلَةٍ [= نحو 6 أشهر] وَلَمْ أَرَّ فِيهَا مَنْ يَطْلُبُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَا مَنْ يَطْلُبُ سَبِيلَهُ."⁽²⁵³⁾ وبعده ارتحل منها إلى جزيرة « ماينبا » ومكث فيها خمس سنوات، ثم ذهب إلى جزيرة « لَمْبَرِينَا » حيث بقي لمدة ثلاث سنين إلا قليلاً، قبل أن يرجع إلى « السنغال » يوم الثلاثاء 11 نوفمبر 1902م. هذا التغريب لمدة ثماني حججٍ إلا قليلاً بين الجزر المتوحشة ما كان أن يمرَّ خافتاً على إنتاجاته الشعرية، وهو ما يفسر طغيان معجم البحر في قصائده.

أما البرُّ، فيعني في هذا السياق الغيبة الثانية أو الغيبة البرية، وهي المدة التي قضاها الشيخ الخديم أيام تغريب المستعمرين له في أرض البياضين

(253) الشيخ الخديم. جزاء الشُّكُورِ الْعَطُوفِ، ص 62.

(250) لقد فصلت أكثر في اتجاه التقليد والتجديد في الأدب السنغالي العربي في بحثي الإجازة الموسوم بـ "الدرس النقدي العربي في السنغال، دراسة تحليلية لكتاب عامر صامب؛ الأدب السنغالي العربي".

(251) الشيخ إبراهيم جُوبَ المَشْعَرِي. الديوان. تحقيق: عبد القادر أمباكي وشعيب تياو. منشورات الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين بالمغرب. ط. 2. (الرباط: دار الأمان،

2021)، 211-212.

(252) من الأمانة التنبيه إلى أنني التقطت هذه الفكرة أول وهلة من خلال قراءتي لبحث سيدنا عيسى صامب الذي حل فيه قصيدة "مقدمات الأمداح"، وذلك في إشارة سريعة، وقد حاولت بلورة الفكرة وربطها أكثر بتجربة الرحلة. فلباحث فضل سبق، وقد لا يدرك الظالعُ شأوَ الضليع.

تَوَتَّ مَقَاوِمَةٌ بِقُوَّةِ كَقُوَّةِ التَّحْدِيَّاتِ ، سَلَاحُهَا الْفِكْرُ
وَالْعِلْمُ ؛ يَقُولُ : [من الكامل]⁽²⁵⁶⁾

وَمَقَالَكُمْ إِنِّي أَجَاهِدُ صَادِقٌ

إِنِّي لَوَجَّهِ اللَّهِ جَلَّ أَجَاهِدُ

إِنِّي أَجَاهِدُ بِالْعُلُومِ وَبِالْتَّقَى

عَبْدُ حَدِيدٍ وَالْمُهَيْمِنُ شَاهِدُ

وهكذا خذل العدو، وهزم جموعهم، وفلَّ حدتهم،

وهذا كان السبب الرئيسي في توثيق الغيبة البحرية،

وهو التحدث بالنعم من باب ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

فَحَدَّثْتِ﴾ [الضحى: 11]، فبالرحلة اكتسبت

الفنائم، واقتنى المزايأ؛⁽²⁵⁷⁾

عَطَايَاهُ فِي بَرٍّ وَبِحَرٍّ تَقْوِدُنِي

إِلَى شُكْرِهِ⁽²⁵⁸⁾ مَذَّ طَيْبَ النَّفْسِ وَالْمَرَعَى

عَجَائِبُهُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لِي بَدَتْ

بِكُونِكَ مَخْدُومِي وَلِي أَوْصَلَ النَّفْعَا

إنَّ الحَقْلَيْنِ الدَّلَائِلِينَ لِعَطَايَا وَالْمَعْجَائِبِ يُخَبِّئَانِ دَلَالَاتٍ

كثيرةً، فلا يكفي تحرير مائة صفحة أو يزيد من

⁽²⁵⁶⁾ ينظر مقدمة تحقيق ديوان "سعادات المريدين"،

ص25.

⁽²⁵⁷⁾ الشيخ الخديم. "مَقَدَّمَاتُ الْأَمْدَاحِ فِي مَزَايَا الْمَفْتَاَحِ".

ضمن ديوان "سَعَادَاتُ الْمُرِيدِينَ فِي أَمْدَاحِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ"،

منشورات الرابطة الخدمية للباحثين والدراسين، ط1.

(الرباط: دار الأمان، 2021)، 88.

⁽²⁵⁸⁾ يقول الشيخ في ختام هذه القصيدة (اللهم يا هادي

يا كريم يا سلام يا شكور صل وسلم..) ويرمز بأوائل الأسماء

الأربعة إلى سنة هكشش، أي 1325هـ/1907م، وفيها

رجع من غيبته البرية.

[موريتانيا] له من 1903 إلى 1907م، وهذه

الرحلة لم يُوثِّقها الشيخ -في حدود علمنا- كما فعل

مع الغيبة البرية في "جزاء الشكور"، لكن هناك

لمسات واضحة لهذه المرحلة في أشعاره⁽²⁵⁴⁾ كما يقول:

[من البسيط]⁽²⁵⁵⁾

حَمْدِي وَشُكْرِي لِمَنْ كَلَّى بِهِ صَارَا

لَهُ رِضَى دُونَ سَخَطٍ عِنْدَ «صَرَّصَارَا»

إِنَّ الَّذِينَ إِلَى «صَرَّصَارَا» قَدَّ قَصَدُوا

زِيَارَتِي فَارْقُوا الدَّارَيْنِ أَوْزَارَا

إذن فإن ثنائية البحر والبر في كتابات الشيخ أيقونة

لهذا التغريب، وفضاء واسع يمتزج بنفسية الشاعر،

ويتماهى مع القصيدة وصفحة الكتابة، فهما يعيدان

الانسجام المفقود بين العلامات المكانية المتناقضة عند

ما يجتمع البحر والبر، ليفرزا توحشهما على الذات،

فهما يرمزان إلى التيه والضياع، حتى سمَّت العرب

الصحراء [وأرض موريتانيا كلها صحراء] بالمفازة

تفاوتاً بفوز صاحبها والخروج منها سالماً معافاً، لكن

هذه الذات بدل أن تنكسر وتستسلم لمخالب الطبيعة

⁽²⁵⁴⁾ للتفصيل يراجع: الغيبة البرية للشيخ الخديم: أسباب

وآثار (1321-1325هـ/1903-1907م). أعمال

محاضرة المكل 1440هـ/2018م، الإعداد: عيسى عافية

غني. (طوبى، روض الرياحين، 2018م).

⁽²⁵⁵⁾ صرصارا: موضع معروف، يبعد عن الطريق الرابط

بين نواكشوط وبوتلميت بنحو 30 كلم. ينظر النص الكامل

في إرواء النديم، ص165.

يُخَاطِبُ الْوُقْيَانُوسَ وَأَمَاجَهُ، فَشَكَاهُ مِنْ أَلَمِهِ،
وَجَعَلَ الْيَمَّ شَرِيكَ لَهُ فِي أَنْ يَشْهَدَ أَنَّهُ صَادِقُ الشُّعُورِ
بِغَيْرِ شَرِكٍ وَلَا نِفَاقٍ. [...] فَالشَّاعِرُ جَرَى مَجْرَى أَبِي
فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ فِي سِجْنِ الرُّومِ، أَوْ فَكْتُورِ هَيْغُو فِي
صَخْرَةِ بَجَزِيرَةِ كَرْنَسِي [Guernsey] أَوْ هُوَيْدِ الشَّاعِرِ
اللَّاتِينِيِّ الْمَسْجُونِ فِي كَسْتَنْزَا.⁽²⁶¹⁾ وهنا يكسبه
الشيخ بعد إنسانيا، متجاوزا المساحة الجغرافية، بل
أكثر من ذلك يتخذه شهيد على الوجدانية ما يعني
أن رؤية الشيخ للكون كلها تنحصر في العبودية لله
تعالى سبحانه، وتعبير آخر «نفي الذات وإثبات
الذات»، كما يصوغه الفيلسوف الباكستاني محمد
إقبال (1877-1938م)، فنفي الذات يكون أمام
الخالق، وإثباته أمام الخلق.

وتطبيقا لهذا المبدأ الثاني، يوظف الشاعر ثنائياً البر
والبحر دعوة جفلى للناس للانخراط في دعوته
التجديدية، يقول: [شبيه مشطور مغلخ البسيط]
(262)

يَا أَهْلَ بَرٍّ

يَا أَهْلَ بَحْرٍ

عُوجُوا لِبَرٍّ

بِحَرِّ السَّخَاءِ

فهذه الذات المخلصة منفتحة على العالم، مسالمة مع
الجميع، رحية الذراع، صافية الندى، فعالمية دعوته
تقتضي توسيع الدائرة كما ارتضاه الشيخ، وعدم
صَبْغِ الطَّرِيقَةِ بِالصَّبْغَةِ الْمَحَلِيَّةِ الْبَوْلِيَّةِ، كما يسميه

(261) عامر صامب. الأدب السنغالي العربي، 2/261.

(262) الشيخ الخديم، «مواهب النافع في مدائح الشافع»،
ضمن ديوان سعادات المرديدن، ص 293.

استيعاب حمولاتها تفصيلا وتحليلا، ويكفي من القول
بأن البعد الكراماتي باهت في هذه الرحلات، وعلى
قول المؤرخين فإن الشيخ خضع لأكثر من 285 ابتلاء
واختبار، (عدد آي سورة البقرة) نجح فيها جميعا،
ولو أزدديد لزاد. ثم إن التأويل الرمزي لهذه الكرامات
من أقوال وأفعال وتنبؤات يكفي لإبراز القيمة الحكائيّة
لهذه الرحلات من جانبيها العرفاني.

يعيد الشاعر صياغة البحر من منظور إنساني،
فيخاطبه مرتجلا وهو في جزيرة «ماينبا»⁽²⁵⁹⁾

لِي أَشْهَدَ بِكَوْنِي عَبْدَ مَنْ يَغْفِرُ الذَّنْبَا

وَكَوْنِي خَدِيمَ الْمُصْطَفَى بَحْرَ «مَائِنْبَا»

ويقول في البيت التاسع، ما قبل الأخير؛

أَيَا بَحْرٍ وَحَدَّ لَا تَتَلَّثَثْ فَرَبْنَا

تَعَالَى عَنِ التَّتَلِيثِ أَكْرَمَ بِهِ رَبًّا

ويتخذ الشاعر البحر أنيس في ظل غربته ووحده،
وكان النداء⁽²⁶⁰⁾ نفسه الذي وظفه الشاعر العربي
القديم حينما وقف واستوقف وبكى واستبكى وقوفا
على الأطلال، ومستذكرا برحال الأحياب، «فكانه
فكْتُورُ هَيْغُو الْمَنْفِيِّ، وَهَذِهِ الْأَلْحَانُ وَحِيدَةٌ فِي الْوَنَائِقِ
التَّارِيخِيَّةِ مِنَ الْأَدَبِ السَّنْغَالِيِّ الْعَرَبِيِّ، فَالشَّاعِرُ

(259) الشيخ الخديم. جزاء الشكور العطوف، ص 64.

و«مَائِنْبَا» [Mayumba] مدينة ساحلية تقع في جنوب دولة
غابون من محافظة «انانغا» [Nyanga] تبعد عن
العاصمة «ليبرفيل» [Libre Ville] بنحو 446 كلم،
ويسكنها قبائل «فيلي» [Vili]، وقد مكث فيها الشيخ المؤلف

الخمس سنوات الأولى من غيبة البحرية.

(260) ولقد وثق لنا سريين موسى كاه حوارات الشيخ الشيقمة
مع البحر، في «جزاء الشكور البحري» (ينظر الأبيات
329-336).

بواسطة التخيل والمحاكاة⁽²⁶⁵⁾. وبالرجوع إلى كتابات الشيخ الخديم نلاحظ ورود معجم "الغربة" أو "الاغتراب" بشكل باهت، وهو قضية لصيقة بما قدمناه في تجربة ثنائية البر والبحر المرتبطة بالرحلة فقط، أما الاغتراب فلازمه مدة 33 عاما وهو في أيدي المستعمر، ولم يهنا بسلام منهم إلى أن ارتقى بالرفيق الأعلى.

إن مصطلح الغربة والاغتراب مصطلح ضارب جذوره في الثقافة الإسلامية، فقد جاء في الحديث ﴿بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ﴾ [صحيح مسلم: 145]، وينظره أهل التصوف بالبعد عن الناس للعبادة، باعتباره ظاهرة صحية، أما عند المجتمعات الصناعية الغربية فيعني البعد عن الذات عملا وفكرا وسلوكا⁽²⁶⁶⁾، في حين تعكس فلسفة الاغتراب [Aliénation] عند الشيخ بالمعاناة والضيق الذي عايشه في سبيل بناء مشروعه الإصلاحية، وهو بذلك يقرب من الدلالة المعجمية للكلمة، وهو غربة مكانية يترجمها بعده عن الوطن والأهل والأحباب، بخلاف ما كان يعيشه في قريته "طوبى" بين مئات من مريديه يخدمون لجنابه ويسهرون على رغباته، ويوفرونه غاية التوقير والتبجيل.

فهذه الرحلة الشاقة التي يصوره المستعمر على أنه الخلاص الوحيد لتفريق جمعه واستئصال شأفة

الباحث عمر به⁽²⁶³⁾ (ب) *La Baolisation du Mouridisme* حتى يميز الثابت من المتحول والغث من السمين.

الرحلة والاغتراب: صورة الأنا والآخر

لطالما تساءل القاد قديم وحديثا عن سير خلود الأعمال الأدبية ضمن الأنشطة الإنسانية، هل بالتطرق إلى الموضوع الإنساني والتجربة الشاملة؟ وهل بشرف المعنى وجلاله؟ أو بحسن اللفظ وبديعه؟ وته التساؤلات أفرزت نتيجة مفادها أن تضمن الشعر للجوانب الإنسانية مع "النظم" [تناسب اللفظ والمعنى في التركيب] هو سر خلوده بحيث يجعل أثرا في الملتقي، وتتجدد قراءته في كل زمان، ويتعاقب تداوله في كل عصر، كما ينظرها إيزر Iser وياوس Jausس في "نظرية التلقي والقراءة"⁽²⁶⁴⁾ [Théories de la réception et de la lecture] وهذا سر إعجابنا بالمعلقات الجاهلية والروائع الأدبية العالمية إلى الآن. ومن أكثر المواضيع للصيقة بالشعور الإنساني وبتجربته قضايا الغربة والحنين، التي يجعلها الناقد حازم القرطاجني (ت. 684هـ) دافع قول الشعر الأساسية، والذي يتلخص في إحداث التأثير في المتلقي

(263) في مداخلة حضرتها، على هامش ندوة "عالمية دعوة الشيخ الخديم وضرورة صونها"، التي نظمها ديوان المعارف ومجالس، في الفترة من 9 إلى 11 سبتمبر 2022م في الساحة الشرقية لجامع طوبى الكبير.

(264) ينظر: روبرت هانس ياوس. *جمالية التلقي: من أجل تأويل جديد للنص الأدبي*. ترجمة رشيد بنحدو. ط1. (بيروت، منشورات ضفاف، 2016). وفولفغانغ إيزر. *فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في (الأدب)*. ترجمة حميد لحميداني & الجلالي الكدية. (فاس: منشورات مكتبة مناهل، دن).

(265) ينظر: فاطمة طحطح. *الغربة والحنين في الشعر*

الأندلسي. ط1. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1993)، 22، نقلا عن "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني.

(266) ينظر: فاطمة طحطح. *الغربة والحنين في الشعر*

الأندلسي، 33-35.

وغنائم بدل الاغتراب نفسه ، من شَجَوٍ وَتَشَكٍّ وَتَظَلُّمٍ ،
فقد باعت الشكاية بالشكر: (271)

نَسَخْتُ بِالشُّكْرِ الشَّكَايَةَ فَلَمْ

يَشْكُ لَهُ الْعَامَ الْمِدَادُ وَالْقَلَمُ

الإلَّا أَنْ تَحْلِيلَ معجم "الاغتراب" انطلاقاً من البيانات
التاريخية المتوفرة تكشف بجلاء عن حجم المعاناة
النفسية والجسدية وثقل حمل المشروع.

فهذا الاغتراب أذكى في نفسية الشيخ جدوة الشوق
والحنين ، وحرك فيه مشاعر الانتماء إلى الوطن ، ما
يؤكد أن شعر الاغتراب مرتبط بدوافع فطرية إنسانية
أصيلة ضاربة في لاوعي الشعوب ، فقد حنَّ إلى
"طوبى" وتمنى تعجل الإياب. ويحكى أنه "مكث [في
غابون] مدة طويلة لم يتكلم مع أحد بلغته ، ولم يسمع
من يتكلم بها: [...] وذات يوم سمع رجلين يتكلمان
باللغة الولفية بطريقة غير فصيحة ، وأخذته شدة
الاشتياق ، ثم تذكر الأهل والأحباب والديار؛ فألف
قصيدة دعا فيها ربه أن يعجل أوبته إلى وطنه ،" (272)
يقول فيها: ﴿وَأَرْجُو رَجوعِي عَاجِلاً خَيْرَ مَنْعِمٍ﴾ إلى
أن قال: ﴿وَرَدَّنِي ، سَرِيعَ إِلَى طُوبَى وَحِطِّي
وَعَلِّمْ﴾ (273) . وهذا الحنين المكاني قد يتجاوز موطنه

ويحترق حدوده الجغرافية ليتعلق بالحجاز؛ المكان
الذي طالما أسأل -ولا يزال- مداد الشعراء والكتاب
شرقاً وغرباً ، فإنَّ اشْتِيَاقَهُ لزيارة الحبيب ﷺ والفوز
بالقرب منه جسم كان أشد ، فلا شيء يستطيع أن
يُطْفِئَ نارَ شوقه إلا بالرحلة إليه؛ إلا أن هاجس إكراه

تأثيره ما كانت أن تُثْمَرَ وتأتي أكلها في ظل صمود
الشيخ وتوكله على الله: (267)

يَظُنُّونِي وَقَتَّ اغْتِرَابِي لَدَيْهِمْ

أَسِيرُ لَهُمْ وَالْكَلُّ ثُمَّ يَخُورُ

فقد باءوا بالخسران المبين ، في حين أن الشيخ حصل
ما أراد ونجح في مشروعه ونجا من كيد الأعداء. فمن
غمسه بحر البلوى ، طرحه إلى ساحل المدى: (268)

نَجَاتِي مِنَ الْأَعْدَاءِ وَالْبَحْرِ وَالْبَلَاءِ

غَرِيْبٍ وَحَيْدٍ مِنْ حَفِيْظٍ مَلَأَ الْجَرَبَا

بِمَدْحِي رَسُولَ اللَّهِ فَارَقَتْ غُرْبَةً

وَلِي سَاقَ رِزْقٍ مَا لَهُ الدَّهْرُ مِنْ نَفْدٍ

(269)

وهذه التجربة الفريدة والرحلة المضنية لا يستطيع
تحملها كل من هب ودب ، فلا بد من العناية الإلهية
والرغبة الدؤوبة في مواصلة السير مع وعورة الطريق
وفقد الأنيس ، فهل يمكن إعادة التجربة؟ (270)

مَنْ شَكَّ فِي ذَلِكَ فَلْيَجْرِبْ

وَمَنْ يَجْرِبْ بَاءَ بِالتَّغْرِبِ

هذه العيّنات تعكس صورة الذات المنتصرة ، التي
فضّلت التحدث بمأل ذلك الاغتراب من مكتسبات

(267) قصيدة (أسير مع الأبرار).

(268) من قصيدة (رضيت) المطرزة بـ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ ، مطلعها: (رضيت عن المولى تعالى الذي رباً = فؤادي وأغنائي وأكرم به رباً).

(269) الشيخ الخديم. جزاء الشكور المطوف ، ص 80.

(270) الشيخ الخديم. جزاء الشكور المطوف ص 68.

(271) من قصيدة مقيدة بـ ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ، مطلعها: (حمدي لرب العالمين سرمداً = من لا يريني ضرر أو كمداً).

(272) الشيخ الخديم. جزاء الشكور المطوف ، ص 45.

(273) من قصيدة (ألا إنني أثني) مطلعها: (ألا إنني أثني على خير منعم = ولا أشنكي للخلق من فقد أنعم).

الشعور بالاغتراب، والانقطاع عن مَنَابِتِ الطُّفُولَةِ، والغوص في مناطق نائية، ثم العودة المظفرة بذخيرة عجائب حقيقية.⁽²⁷⁶⁾ فالآخر هنا متعدد، ولكل صورته الخاصة نتيجة تورطه في القضية إن إيجاباً أو سلباً، فنجد المستعمر يَصُورُ على أنه المُغْرَبُ⁽²⁷⁷⁾، ذو السوء والضَّرر ولا يفارق الشَّرَّ، وذو طَلاحٍ وقليٍّ ومَكْرٍ⁽²⁷⁸⁾. ثم يحكي واصفاً أهل غابون قائلاً: "تلك الأرض التي ليس فيها من يعرف بالسنة ولا بالفرض."⁽²⁷⁹⁾ ويضيف: "ولم أر فيها من يطلب الله تبارك وتعالى ولما من يطلب سبيله."⁽²⁸⁰⁾ تقتضي هذه الأوصاف دراسة الحالة الدينية لدى سكان تلك الجزر كباقل [Vili]؛ قبيلة في «ماينبا» وكلوى [Galwa]؛ قبيلة في «لمبرينا». ولا شك أن كتابات الشيخ مصدر غني لمعرفة تطور الحالة الدينية لأهل تلك الناحية. وتتغير صورة السرد لدى وصفه لأهل موريتانيا في غيبته البرية، فيصنفهم بـ«أهل الصوف» و«البررة» و«الأبرار» و«الصالحون» أو «أرض شنيط» أو «أرض الصالحين»⁽²⁸¹⁾ وهذا التبئير [Focalisation] السردِي يكشف بجلاء عن إسباغ الشيخ كل قيم الخير والصلاح لأهل موريتانيا، وبذلك يخلق الجسر التواصلي العلمي الناجح بين البلدين.

(276) إبراهيم، عبد الله. "الرحلة بوصفه سرداً ثقافياً".

مقال منشور في جريدة الرياض، 6 يناير 2011، الرابط:

<https://www.alriyadh.com/592205>

(اطلع عليه بتاريخ 21 يوليو 2023).

(277) الشيخ الخديم. جزاء الشكور العطوف، ص 60.

(278) الشيخ الخديم. جزاء الشكور العطوف، ص 77.

(279) الشيخ الخديم. جزاء الشكور العطوف، ص 70.

(280) الشيخ الخديم. جزاء الشكور العطوف، ص 62.

(281) الشيخ الخديم. جزاء الشكور العطوف، ص 77.

الذات وكثرة الموقوفات حالت دون تحقيق حلمه، فكان الحل القيام برحلة روحية، التي أكثر ما تكون أنجع وأثمر من الرحلة الجسدية، يقول الشيخ في رائيته الرائعة:⁽²⁷⁴⁾

وهو الذي عبق جسمي عن زيارته

لكن لساني له كالتلب زوار

وبعد موته بسنة -رضي الله عنه- ستحقق الرحلة الحجازية بقيام ابن خاله سرين امباكي بوصو (1864-1945م) بالحج نيابة عنه، بسبب: "أن الشيخ الخديم لم يبق له حين وفاته من حوائج الدنيا - فيما نعلم - إلا ثلاث: أداء فريضة الحج، وبناء مسجد جامع في طوبى، وبناء مدرسة تكون رحلة السنغال إليها في العلوم العربية شرعيتها وآلاتها."⁽²⁷⁵⁾

إن الرحلة عند الشيخ الخديم لم تخل من حديث عن الثقافة وقضاياها في إشارات مقتضبة، ذلك أن للرحلة أبعاد أنثروبولوجية، وتدخل ضمن مرويات السرد الثقافى، الذي يجلي صورة الآخر ذهنيًا واجتماعيًا ودينيًا، كما يؤكد الدكتور عبد الله إبراهيم مؤلف موسوعة السرد العربي (9 أجزاء): "فأدب الرحلة [...] إطار ناظم لجملة من التنوعات الأسلوبية، والرؤى الذاتية، والمواقف الثقافية، والأحكام القيميّة، والاكتشافات الجديدة، ومغالبة

(274) "قصيدة" الرائية" التي مطلعها: (قلبي له في عتاب الجسم تكراراً = لأنه للهدى والنور جرار) ضمن ديوان سعادات الميردين، ص 59.

(275) من رسائل الشيخ محمد البصوي المشهور بالحاج امباكي بوسو، جمع الدكتور خديم محمد سعيد امباكي، (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية: 1996)، 177-178. وقد تحدثنا باقتضاب عن هذه الرحلة في الإحالة رقم 9.

فقارن بين صورتين؛ أجواء الفجور والفسق، وأجواء الصفاء والود⁽²⁸²⁾.

في ضوء ما سبق، نخلص إلى أن سرود الارتحال قامت بتمثيل الذات والآخر استناداً إلى آلية مزدوجة اتخذت أشكالاً متعارضة، تتأسس على جدلية الخير والشر، والصلاح والطلاح، والاعتراب والانسراح، والذهاب والإياب، ساهمت في تشكيلها وتشكلها قوى فاعلية متعددة، بدءاً بذات الشيخ، مروراً بالوسائط؛ الاستعمار وعملائه، وانتهاءً بالأراضي المستقبلية في ناحية البر أو البحر.

الذات الموضوعية ثم ربطه بالسرديات عناصر تستدعي مزيداً من الدراسة والتحليل بزوايا مختلفة، وهذا يتطلب قارئ الرحلة أن يمتلك عيناً يقظة وثقافة موسوعية وذكاءً اجتماعياً وحسّاً تواصلياً حتى يسبر أغوارها ويميط لثامها ويكشف خباياها وخفاياها، ولعلّ دارس آخر يأتي ليكمل الناقصات ويسد الثغرات.

تركيب: ما يشبه الخاتمة

تبين للقارئ من خلال هذه الورقة هاجس إشراق الروح وإكراه الذات في رحلات الشيخ أحمد بمب البكي، فإشراق الروح تمثل في الرحلة الروحية نحو الحجاز وإشراك ساكنها عليه أفضل الصلاة والسلام في عملية الرحلة في كل مساراتها ومسالكها، ما خفف من وعورة الطريق ودلّ العقبات ووقى المهالك، أمّا إكراه الذات فتمثل في السلطات الاستعمارية وعملائها التي وقفت حجر عثرة على مشروعه الإصلاحية والتجديدي، فقد عبر الشيخ عن هذه التجربة من خلال توظيفه الحقول الدلالية «للبحر» و«البر» و«الاعتراب». وهذا جعل الرحلة تحقق جمالية في الإمتاع ومثانة في الإقناع، فكتابة السفر مع تضمين

(282) ويوضح هذه المفارقة قول الشيخ في البيتين: ينظر:

الغيبة البرية، ص10.

بأيمته في البحر تحت الشجرة==والبحر مزيدٌ وحولي
الفجرة

بأيمته في البر تحت الشجرة==والجو طيبٌ وحولي البررة

لائحة بأهم المصادر والمراجع

عامر صَأمب. الأدب السنغالي العربي. جزآن. ط.2. (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978).

فاطمة طحطح. الغربية والحنين في الشعر الأندلسي. ط. 1. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1993).

محمد العاقل. "الأنا الإسلامي والآخر في الرحلات السفارية-رحلة ابن عثمان الكناسي نموذجا" ضمن أدب الرحلة: جدلية الأنا والآخر في عالم متغير، تنسيق خالد التوزاني، ط.2. (عمان: دار كنوز المعرفة، 2020).

أبو على الحسن القيرواني الأزدي ابن رشيق (ت. 463هـ). العمدة في صناعة الشعر ونقده. جزآن. تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان. ط.1. (القاهرة: مكتبة الخانجي، 2000).

سرين امباكي بوضو. من رسائل الشيخ محمد البصوي المشهور بالحاج امباكي بوضو، جمع الدكتور خديم محمد سعيد امباكي، (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية: 1996).

الشيخ إبراهيم جوب المشعري. الديوان. تحقيق: عبد القادر امباكي وشعيب تياو. منشورات الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين بالمغرب. ط. 2. (الرباط: دار الأمان، 2021).

الشيخ أحمد بمب امباكي، المشهور بالشيخ الخديم. "مقدمات الأمداح في مزايا المفتاح". ضمن ديوان "سعادات المرئدين في أمداح خير المرسلين"، منشورات الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين، ط.1. (الرباط: دار الأمان، 2021).

الشيخ أحمد بمب امباكي، المشهور بالشيخ الخديم. جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف. دراسة وتحقيق: محمد المرتضى بوضو ومأم مور امباكي حمدي. منشورات الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين، ط.1. (الرباط: دار الأمان، 2022).

الشيخ محمد الأمين جوب الدغاني (ت. 1968م). إرواء النديم من عذب حب الخديم. دراسة وتحقيق: مجموعة من الباحثين. منشورات الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين بالمغرب. (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1439هـ/2017م).

بَيْنَ إِشْرَاقِ الرُّوحِ وَإِكْرَاهَاتِ الْجَسَدِ... أَدَبُ الرِّحْلَةِ فِي الْكُتَابَاتِ الْخَدِيمِيَّةِ

بقلم الباحث: عبد الله غاي

البعد اللساني التربوي في المنظومات الخدمية

"سعادة الطلاب وراحة لطالب الإعراب" نموذجاً

اسم صاحب المقال محذوف ، روما للموضوعية في
التحكيم

مقدمة

يعدُّ تأليف المتون والمنظومات النحوية من قبل النحاة واللغويين من الأعمال التي اهتمت بقضية تعليم النحو وتيسيره على المتعلمين؛ مما يدل على وعي الدارسين بضرورة وجود مستوى من المؤلفات النحوية المختصرة والميسرة تناسب النشء من الطلاب، وقد أثبتت بعض الدراسات التحليلية النقدية لكثير من هذه المتون والمختصرات أنها تحتوي على مجموعة من المبادئ اللسانية التربوية التي يمكن الاستفادة منها في بناء مناهج التعليم العام والجامعي، ومن هذه المبادئ: انتقاء الموضوعات، والتدرج في عرضها، وترتيبها، والوضوح في عناصرها، وتهذيب قضاياها. هذا، ومن أهم الأفكار التي اهتمت بجانب أو جوانب من اللسانيات التربوية، تلك الأفكار المثبتة في الفكر اللساني من التراث السنغالي، وتتعلق بتعليمية اللغة العربية عامة، وتعليمية النحو خاصة.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الأبعاد اللسانية والتربوية التي تأسست عليها منظومة سعادة الطلاب، وإبراز قيمتها المعرفية والمنهجية والتربوية، بالإشارة إلى كيفية الاستفادة منها في بناء المناهج الدراسية؛ من أجل ذلك نقدم في هذه الورقة البحثية قراءة تحليلية في منظومة سعادة الطلاب للمؤلف

الشيخ أحمد الخديم من خلال إبراز إشكالية البحث
بطرح الأسئلة الآتية:

- ما الهدف من تأليف المنظومة؟
- ما هي الأبعاد اللسانية التربوية الموجودة في منظومة سعادة الطلاب؟
- ما هي المناهج اللسانية التربوية التي اعتمدها المؤلف في منظومته؟

واتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي هو المنهج الأنسب لعرض إشكالية البحث.

1- الهدف من تأليف المنظومة

لقد بيّن الشيخ في مقدمة المنظومة الهدف من تأليف هذا المختصر بقوله:

وَبَعْدَ فَالْمَقْصُودِ نَظْمٌ قَدْ بَهَرَ

فِي عَقْدِ مَا الْفَتَى ابْنَ دَاوُدَ نَثَرَ

نَظْمَتَهُ ثَانِيَةً مُخْتَصِرًا

لِكَيْ يَكُونَ نَافِعًا كُلَّ الْوَرَى

سَمِيَّتَهُ سَعَادَةَ الطُّلَّابِ

وَرَّاحَةَ لِطَالِبِ الْإِعْرَابِ

ويبدو من خلال الأبيات السابقة أن سعادة الطلاب منظومة عقد بها الشيخ ما نشره ابن آجروم في كتابه المعروف المسمى بـ "المقدمة الأجرومية". فعلى هذا، فإن سعادة الطلاب مختصرٌ منظومٌ للمبتدئين، رام المؤلف من خلاله إيضاح القضايا والظواهر النحوية الأساسية دون الغوص في معضلاتها وتفصيلها؛ مما يجعل هذا المختصر إلى جانب الإيجاز في حجمه يتميز بالبساطة والوضوح والدقة في عرض القواعد

العديد من الأبواب التي يرى المؤلف عدم حاجة للمبتدئين إليها مثل: باب الاختصاص وباب الحكاية والاشتغال... إضافة إلى ذلك، فإن الشيخ قد ابتعد في منظومته عن ذكر التفصيلات والخلافات النحوية التي من شأنها أن تشتت ذهن المتعلم بذكر المسائل النحوية التي لا تتناسب مع مداركه العقلية. ويضاف إلى ما سبق من الأسباب التي أدت إلى رواج سعادة الطلاب أن صاحبها قد ألبسها رداءً أديبا جميلا فجاءت كلمات المنظومة واضحة، وعباراتها سهلة بفضل حسن النظم وجودته؛ والغرض من ذلك تسهيل النحو وتعليمه وتقريبه من المتعلمين في طابع مخفف. ولعل من أسباب رواج سعادة الطلاب أنها نظمت على بحر واحد من الرجز؛ مما يجعل نغمها الموسيقي منسجما ووزنها منقادا في نسق واحد، فتكون خفيفة على السمع سهلة الحفظ، "ولا شك أن الأبيات التي ليست من بحر واحد تضطرب فيها الأنغام الموسيقية وتكون ثقيلة على السمع يصعب حفظها ولا ينقاد وزنها في نسق واحد عكس الأبيات التي من بحر واحد" (انظر ممدوح، 2000، 269).

وقد اخترت منظومة سعادة الطلاب لدراساتها وتحليلها وفق مقارنة لسانية تربوية؛ لتكون نموذجا لتحقيق الغرض من النحو المتمثل في القدرة على القراءة والمخاطبة؛ لأن الغاية من النحو هي مخاطبة الناس وقراءة كتبهم المؤلفة حسب رأي ابن حزم (1987، 66)، وهي الغاية نفسها التي توخاها الشيخ في منظومته سعادة الطلاب؛ فقد قصد إلى السهولة والوضوح واليسر في عرض أبواب النحو ومسائله على المتعلم، ويظهر ذلك في الطريقة التعليمية التي صبغ بها منظومته، والتي سنأتي على ذكر أبرز ملامحها لاحقا.

وقد رام الشيخ من خلال مختصره سعادة الطلاب وضع كتاب في النحو التربوي التعليمي، يتسم

النحوية، فهو قائم على طريقة الإجمال ثم التفصيل التي اعتمدها المؤلف في جميع أبواب الكتاب لبيان وتوضيح المسائل النحوية في ذهن المتعلم. فالكتاب يتجاوز دائرة المتعلمين إلى المتخصصين، ولكنه كما هو واضح من عنوانه، ومضمونه - كما سيأتي بيانه - يفيد المتعلم المبتدئ أكثر من المتخصص في استيعاب علم النحو العربي. وفي قول الشيخ عن مختصره: "وراحة لطالب الإعراب" دليل على ما ذكرنا.

2- قراءة في الأبعاد اللسانية التربوية لمنظومة سعادة الطلاب

تعدّ منظومة سعادة الطلاب من أبرز المنظومات النحوية الرامية لتسهيل القواعد النحوية، نظمها الشيخ أحمد الخديم وهو منفي في موريتانيا، ويبلغ عدد أبياتها حوالي ثلاثمائة وثمانية (308) أبيات، وهي من بحر الرجز (انظر تياو، 2009، 18). والكتاب كما هو واضح من عنوانه يندرج ضمن كتب النحو التعليمي التي تعنى ببيان النحو الوظيفي النافع لتقويم اللسان والكتابة.

حظيت منظومة سعادة الطلاب بشرح وافٍ كافٍ للدكتور أبي مدين شعيب تياو الأزهري الطوبوي يُسمى: "فتح الوهاب في شرح سعادة الطلاب". يعتبر هذا الكتاب القيم مرجعا مهما للطلبة والباحثين في الحقل اللغوي وخصوصا في مجال النحو العربي في بلادنا.

ومما يبين أهمية سعادة الطلاب، أنها لاقت رواجاً كبيراً منذ تأليفها إلى عصرنا الحاضر، أقبل عليها طلاب علم النحو في بيئة المريدين السنغاليين، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى كونها منظومة موضوعة للمبتدئين، اكتفى الشيخ فيها بالأسس والقواعد النحوية العامة مراعاة لمستوى المتعلمين، لذلك أهمل

مما يؤكد على وعي الكُتَّاب السنغاليين القدماء بهذه القضية.

4- منهجه في المنظومة

قسم الشيخ منظومته "سعادة الطلاب" إلى تسعة وعشرين بابا، تضمنت أبواب النحو فقط، وبهذا التقسيم لم يتبع الشيخ المنهج السائد عند عامة النحاة القدماء من تقسيم علم النحو إلى الأبواب النحوية والصرفية وتأخير أبواب الصرف على أبواب النحو، يقول ابن جني (1954، 4) معللاً ذلك: "لا تكاد تجد كتابا في النحو إلا والتصريف في آخره"، ولكن الشيخ تناول الجانب النحوي فقط في منظومته؛ لأن هذا المنهج ينطبق على مرحلة تكوين علم الصرف واكتماله وانفصاله مع علم النحو وانتقال تسميته في كثير من المصنفات إلى علم التصريف. وتبرز أهمية ملامح هذا المنهج أي عدم عرض المؤلف لموضوعات الصرف في سعادة الطلاب؛ حتى يكون الارتياض على موضوعات النحو سهلا للمتعلم المبتدئ وممهدا له للدخول في فن علم الصرف. وقد بدأ الشيخ منظومته بمقدمة عددها تسعة أبيات، وختمها بخاتمة عددها ثلاثة أبيات وبين المقدمة والخاتمة عرض أبواب النحو، وينقسم الأبواب النحوية بدورها إلى قسمين:

القسم الأول: المقدمات النحوية، وهي عبارة عن أحكام تتناول اللفظ قبل وروده في التركيب، أتى بها الشيخ تمهيدا للحديث عن الأحكام التركيبية، وتتكون المقدمات النحوية من أربعة أبواب، وهي الكلام وما يتألف منه، الإعراب، علامات الإعراب، المعربات.

القسم الثاني: الأحكام النحوية التفصيلية، وهي التي تخص الكلمة حال تركيبها في السلسلة الكلامية، وينقسم هذا الجزء إلى خمسة أقسام:

1- أحكام الجملة الفعلية وما يتصل بها: وفي هذا القسم تكلم عن الأبواب التي تتعلق بالمسند إليه في

بالوضوح بعيدا عن الغموض والتعقيد، يتناسب مع المتعلمين المبتدئين. وبالتالي، يمكننا اعتبار سعادة الطلاب نموذجا للنحو التربوي التعليمي كفيلا بتحقيق الأهداف التعليمية المتمثلة في الوصول بالمتعلم إلى القدرة على التعبير الشفوي والكتابي. وهذا يدل على أن الشيخ يتمتع بقدرة كبيرة على النظم، مكنته من النظم في فني النحو والصرف²⁸³ وغيرهما من فنون شتى من المعارف.

3- القيمة اللسانية التربوية للمنظومة

إن القيمة اللسانية التربوية لهذه المنظومة تكمن في المنهج العلمي الذي تبناه الناظم في معالجة قضايا النحو لغايات تعليمية من أجل تيسيره وتسهيل قواعده، وجعلها سائغة أمام المتعلم، عن طريق عرض مادة نحوية تتناسب مع مستوى المتعلمين المبتدئين، تقوم أساسا على مبدأ الانتقاء من النحو الوظيفي الموضوعات التي تتسم بالفائدة العملية للمتعلم.

يمكننا أن نقول إن تأليف هذه المنظومة في هذه الفترة الزمنية يحمل دلالة واضحة على أن قضية تقريب النحو من النشء والمتعلمين تشكل قضية جوهرية منذ القديم، هذا من جهة، ومن زاوية أخرى فإن قضية عرض النحو عرضا جديدا مبنيا على اختيار الموضوعات الأساسية الوظيفية النافعة لتقويم اللسان والكتابة، قضية تجاوزت اهتمام المتخصصين من النحاة إلى غيرهم من العلماء كالشيخ الخديم؛

(283) فيما يتعلق بعلم الصرف، قام الشيخ بوضع تعليقات على كتاب "نزهة الظريف وبغية المولع بالتصريف" للعلامة أديج بن عبد الله الكمليلي الشنقيطي. [غير سديد عندي أن يُستدل بالشرح على التمكن من النظم، يرجى إعادة النظر في هذا].

يسلك طريقة تمكنه من الوصول إلى القانون العام بنفسه.

ومعنى ذلك أن الشيخ بنى منظومته على الجزئيات سعياً للوصول إلى الكليات؛ فلم يدرس الجملة الاسمية في إطارها الكلي، وإنما درس جزئياتها كباب المبتدأ والخبر، والأمر نفسه بالنسبة إلى الجملة الفعلية، حيث سعى في دراسة جزئياتها أيضاً مثل باب الفاعل ونائب الفاعل وباب المفعول وأنواعه وباب الحال والتمييز...؛ لغرض الوصول بالمتعلم إلى إدراك الكليات النحوية انطلاقاً من الجزئيات؛ لأن هذه الطريقة تساعد المتعلم على الترتيب الذهني لكونها طريقة قائمة على الترابط بين الأبواب النحوية.

إضافة إلى الطريقة الاستقرائية اعتمد الشيخ في سعادة الطلاب على الطريقة القياسية بنسبة كبيرة، وهي طريقة تقوم على إعطاء القاعدة ثم الأمثلة، إنها مبنية على الاستنتاج بحيث ينتقل فيها الفكر من الحقائق العامة (القاعدة) إلى الحقائق الجزئية (الأمثلة) أو بتعبير آخر من الكل إلى الجزء، والجدير بالذكر أن هذه الطريقة تنسجم مع طبيعة التفكير الإنساني القائمة على التدرج من الكيات إلى الجزئيات ومن الإجمال إلى التفصيل، ومن أمثلة هذه الطريقة قول الشيخ في باب المبتدأ والخبر:

المُبْتَدَأُ الإِسْمُ الَّذِي عَرِيَ عَنِّ

عَوَامِلٍ لِفُظِّيَّةٍ حَيْثُ يَعْنُ

مُرْتَفِعًا كَاللَّهِ رَبَّنَا السَّمِيعُ

مُحَمَّدٌ نَبِينًا وَهُوَ الشَّفِيعُ

فالبيت الأول يمثل القاعدة، والبيت الثاني عبارة عن أمثلة توضح القاعدة. وهذه الطريقة هي الشائعة في أكثر المنظومات النحوية، ومنها سعادة الطلاب وألفية ابن مالك وملحة الإعراب ومقدمة الكوكبي وغيرها؛

الجملة الفعلية، مثل باب الفاعل وباب نائب الفاعل، ثم ذكر أبواب المفعول به والمفعول المطلق والمفعول فيه (ظرف في الزمان والمكان) والمفعول من أجله والمفعول معه وباب الحال والتمييز والمستثنى.

2- أحكام الجملة الاسمية وما يتصل بها: وفي هذا القسم تحدث عن باب المبتدأ والخبر وأبواب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر وتسمى نواسخ الابتداء، وهي كان وأخواتها، وإن وأخواتها، وظن وأخواتها.

3- التوابع في الجملتين الاسمية والفعلية: بعد فراغ الشيخ من الحديث عن الجملة الفعلية والجملة الاسمية، ذكر ما يكون تابعا لهما في الإعراب، وهو باب النعت والعطف والتوكيد والبدل.

4- أحكام خاصة بالفعل: وفي هذا الجزء تحدث الشيخ عن باب الأفعال، حيث ذكر أنواع الفعل وإعرابه والأحكام المتعلقة به وعوامل النصب والجزم.

5- أساليب نحوية متنوعة: ذكر في هذا القسم باب المنادى دون الخوض في الحديث عن الأساليب الأخرى، مثل الاستغاثة والندبة والترخيم والاختصاص والتحذير والإغراء... لكون أسلوب النداء يتسم بالسهولة لدى المتعلم ويبتعد عن التعقيد.

نوع الشيخ في كيفية عرض المادة النحوية على المتعلم في منظومته؛ فاستخدم عدة طرق ومن ذلك استخدامه للطريقة الاستنباطية (الاستقرائية) طريقة "الأمثلة ثم القاعدة" التي تعد من جملة المبادئ اللسانية التربوية. وهي طريقة قائمة على جهد المعلم في عرض الأمثلة ونشاط المتعلم وفاعليته في المشاركة في استنباط القاعدة من الأمثلة، فينتقل التلميذ من الجزئيات إلى الكليات ومن القضايا الخاصة إلى القضايا العامة، وتظهر الفائدة التربوية لهذه الطريقة بكونها تساهم في تكوين إدراك المتعلم؛ لأنه

والخبر، لأنه في حديثه عن الخبر سيعرض لأنواعه، وهي المفرد، الجملة الفعلية، الجملة الاسمية، شبه جملة، كما يتضح ذلك أيضا في ترتيبه للتوابع بذكر النعت ثم العطف قبل حديثه عن التوكيد والبدل، كما رتب الأبواب التي تتعلق بالأحكام النحوية، ويوضح ذلك أنه بدأ بباب مرفوعات الأسماء ثم باب منصوبات الأسماء وآخر باب مخفوضات الأسماء. ومن هنا يتضح لنا مدى الترابط بين موضوعات النحو في منظومة سعادة الطلاب، هذا الترابط الذي من شأنه أن يجعل "المتعلم لا يحس بأي غرابة عندما ينتقل من درس إلى درس آخر، بل أن يشعر بوجود تسلسل متماسك بين الدروس المتتالية، ولا يتم ذلك إلا إذا كان الدرس الواحد يرتبط بما قبله لما فيه من التدعيم والتثبيت للمكتسبات السابقة وبالذي يليه لما فيه من التمهيد له" (ينظر صالح، 1974، 63).

ولعل هذا الصنيع من الشيخ (كون موضوعات كتابه تتسم بالترابط) له فائدة تعليمية مهمة، وهي أن المتعلم يتصور المسائل النحوية تصورا كاملا.

يتضح الأسلوب التربوي التعليمي في منهج المؤلف من خلال عرضه للأبواب النحوية في المنظومة، والتي تتعلق بالهدف من النظم والمنهج في الاستشهاد وطبيعة بناء المنظومة اللغوية وأسلوب التسهيل والتيسير في النقاط الآتية:

- يسهل على المتعلم وخصوصا المبتدئ أن يستفيد استفادة مباشرة من هذه المنظومة النحوية دون الحاجة في اللجوء إلى الشرح الذي ألف حوله، وهذه هي الغاية في المنظومات النحوية أي أن تكون وسيلة تعليمية يستفيد منها المتعلم استفادة مباشرة.

لأن كتب النحو التقليدية تتسم غالبا بتقديم القاعدة العامة ثم تتبعها الأمثلة التي تسهم في توضيح القاعدة. وقوله أيضا في باب الكلام وما يتألف منه:

كَلَامُهُمْ لَفْظٌ مُرَكَّبٌ مُفِيدٌ
بِالْقَصْدِ نَحْوُ إِنَّ هَذَا لَسَعِيدٌ

فالشطر الأول من البيت يحيل على القاعدة، والشطر الثاني يشير إلى المثال الذي يوضح ويثبت القاعدة، ومعنى ذلك أن الناظم يقدم للمتعلّم الدلالة الاصطلاحية لمفهوم "الكلام" ثم يعطيه نموذجا تطبيقيا محددًا يؤكد ملاحظاته.

عند فحصنا لمنظومة سعادة الطلاب لا حظنا أن الشيخ سلك في ترتيب موضوعاته منهجين:

المنهج الأول: منهج الانطلاق من تقديم البسيط على المعقد والسهل على الصعب، وتبرز أهمية ملامح هذا المنهج في أن المؤلف اعتمد في عرض أبواب منظومته مبدأ التدرج فذكر بعض الموضوعات التي تبدو سهلة نوعا ما على المتعلم المبتدئ قبل الموضوعات الصعبة مثل ذكره لموضوعي "المفعول المطلق" و"الظروف" قبل موضوعات الحال والتمييز والمستثنى والمنادى؛ "لأن ترتيب الموضوعات النحوية لا يخضع لمبدأ السهولة والصعوبة فقط، بل إن ترتيب الموضوعات النحوية يتأثر بعوامل كثيرة منها: الأهداف ومستوى المتعلمين والوقت المخصص للتعليم..." (الراجحي، 1995، 61). والأهم من ذلك كله هو مقياس الأهمية والإفادة فليس كل الموضوعات المهمة الأساسية سهلة، وكذلك ليس كل الموضوعات السهلة ضرورية ومفيدة في التعليم.

المنهج الثاني: راعى الشيخ في ترتيب موضوعات منظومته مبدأ الترابط و يظهر ذلك أنه ذكر الفعل والفاعل، أي الجملة الفعلية، قبل أن يتناول المبتدأ

فهذا الذي ذكره الناظم عند تعريف الكلام وأقسامه الثلاثة: اسم وفعل وحرف معنى إجمالي، عمد إلى تفصيله في الأبيات اللاحقة؛ فذكر علامات الاسم وعلامات الفعل وتعريف الحرف وعلاماته. كما ذكر تعريف الإعراب في الباب الثاني بالمعنى الإجمالي ثم قصد إلى تفصيله بالحديث عن علاماته في الباب الثالث.

كما يظهر منهج الإجمال ثم التفصيل بوضوح في علاج القضايا النحوية؛ فنرى الشيخ في باب معرفة علامات الإعراب مثلاً يجمل ذكر علامات الرفع في الضم والواو والألف والنون، ثم يفصل في توضيح كل علامة على حدة، كما في قوله:

لِلرَّفْعِ دَالٌّ مِنْ عِلَامَاتٍ وَفَتْ
ضُمُّ وَوَاوٍ أَلْفٌ نُونٌ ثَبَتَ

- اعتمد الناظم مبدأ الإحالة إلى قواعد وأحكام سابقة، ومن الأمثلة على ذلك قوله:

وَعَكْسٌ مَا كَانَ لِكَانَ مِنْ عَمَلٍ
نَمِيٍّ لِإِنَّ وَلِمَا لَهَا حَصَلَ

فقد أحال الناظم في هذا البيت معرفة عمل إن إلى عمل كان الذي ذكره من قبل، وهذه الإحالة منه تفيد المتعلم في عدم نسيان المادة العلمية السابقة، التي قام بالتذكير بها هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ اعتماد مبدأ الضدية في تقرير القاعدة النحوية؛ لأن المتعلم في هذه الحال لا يحتاج إلى معرفة عمل كان وأخواتها وعمل إن وأخواتها كلاً على حدة، بل يكفي معرفة عمل كان وأخواتها فقط لمعرفة عمل إن وأخواتها.

- القصد إلى السهولة والوضوح في عرض الموضوعات النحوية؛ فإن من يقرأ منظومة سعادة الطلاب يجد نفسه أمام معلّم متمكن، يحسن عرض موضوعاته

- تركيز منظومة سعادة الطلاب على الحفظ والاستظهار²⁸⁴، كما كانت ترمي أيضاً إلى تدريب المتعلمين على الاستنباط والقدرة على التفكير²⁸⁵.

- الإجمال ثم التفصيل؛ فقد اعتمد الشيخ على هذا المبدأ في عرض مختلف القضايا النحوية التي ضمنها منظومته، ومن الأبواب التي تبين هذا المنهج الذي سلكه الناظم باب الكلام، وهو الباب الأول من منظومته، حيث قال:

كَلَامُهُمْ لَفْظٌ مُرَكَّبٌ مُفِيدٌ
بِالْقَصْدِ نَحْوُ إِنْ هَذَا لَسَعِيدٌ
أَقْسَامُهُ جِيمٌ قَلَّ اسْمٌ عَنَّا
ثُمَّتَ فَعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْمَعْنَى

(284) يعد الحفظ والاستظهار من أهم الملامح التعليمية التي اعتمد عليها في تعليم اللغات قديماً وحديثاً سواء عند العرب أو غيرهم كاليونان والرومان... وتظهر فائدة الحفظ والاستظهار في تنمية مهارة القراءة لدى المتعلم، ولكنه في المقابل يؤدي إلى إهمال بقية المهارات اللغوية الأخرى التي يجب على المتعلم أن يتمكن منها (مهارة الاستماع والحديث والكتابة)، إهمال مهارات ذهنية كالاستنباط والتفكير والفهم...

(285) وقد بين الجاحظ الطريقة التي يراها أمثل في التعليم، وهي التي تجمع بين الاستنباط والتفكير مع عدم إهمال الحفظ، فيقول: "وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه، وإغفال العقل من التمييز... ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً، والاستنباط هو الذي يفضي إلى يفضي إلى برد اليقين وعز الثقة والقضية الصحيحة والحكم المحمود، أي أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ، وإن كان الحفظ أشرف منزلة منه، ومتى أهمل النظر لم تسرع إليه المعاني، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه وقبل مكثها في صدره" انظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ج3، ط1، 1979 مكتبة الخانجي، مصر، ص: 29-30).

والفعل يُعْرَفُ بِقَدِّ السَّيْنِ
سَوْفَ وَتَا التَّأْنِيثِ بِالسَّكِينِ
كدخلتْ وخرجتْ وركعتْ
وسجدتْ وكبرتْ وسلّمتْ

فهذه الأبيات التي ذكرناها تبدو مركزة وموجزة وواضحة بعيدة عن الحشو؛ لأن هناك علامات أخرى تقبلها الفعل، ولكنه لم يذكرها؛ لأن هذا المنهج يتناسب مستوى المتعلمين المبتدئين. ومن فائدة أسلوب الحصر أن يساعد المتعلم على فهم وتصور المسألة النحوية جيدا. ويبدو لنا من ناحية تربوية أن الاختصار في عرض القضايا النحوية والقواعد والأمثلة مع الإيجاز في حجم المنظومة النحوية، يعد الوسيلة المثلى في سبيل نجاح العملية التعليمية.

- الاعتماد على الأسلوب التعليمي والتقسيم المنهجي؛ فالقارئ لسعادة الطلاب يلاحظ أن الناظم اعتمد أسلوبا تعليميا مفيدا قوامه التقسيم المنهجي؛ مما يسهل على المبتدئين استيعاب المسائل النحوية في يسر وسهولة ومن أمثلة ذلك قوله في باب المعربات:

المُعْرَبَاتُ قَدْ أَتَتْ قَسْمَيْنِ

بالشَّكْلِ أَوْ بِالْحَرْفِ دُونَ مَيِّنِ

فنلاحظ في هذا البيت أن الناظم اعتمد التقسيم المنطقي؛ فقد قسم المعربات إلى قسمين: الإعراب بالحركات، والإعراب بالحروف، حيث أورد تعريفهما بذكر أنواع كل منها مع ذكر أمثلة لكل قسم في الأبيات المتتالية للبيت السابق²⁸⁶.

(286) يعني أن الناظم بين في الأبيات اللاحقة أن المعربات بالحركات تركز على أربعة أنواع، وهي: مفرد، جمع تكسير، جمع مؤنث سالم، الفعل المضارع الصحيح الآخر.

على المتعلم، متخذًا في سبيل ذلك الأسلوب الواضح والألفاظ السهلة والعبارات المتماثلة التي تبتعد عن التعقيد وتأتى عن جفاف القواعد المنطقية، ومن أمثلة السهولة والوضوح التي نجدها في هذه المنظومة قوله في باب النعت:

النَّعْتُ لِلْمَنْعُوتِ فِي رَفْعٍ وَفِي

نَصْبٍ وَخَفْضٍ تَابِعٌ حَيْثُ يَفِي

كذلك في تعريف أو تنكير أو

تأنيثٍ إفرادٍ وجمعٍ قد حَكَوْا

كذلك في تنيةٍ تقولُ

جاءَ شَفِيعُنَا النَّبِيَّ الرَّسُولُ

الأزْمُ الرُّضَى الكَبِيرَ أَبَدَا

بخدمَةِ الحَبِّ الخَلِيلِ أَحْمَدَا

فنلاحظ من خلال الأبيات السابقة الوضوح والسهولة في تقرير هذا الباب، إضافة إلى المسحة الأدبية وبراعة الصياغة واجتباب الحشو الذي لا فائدة من ورائه.

- الاعتماد على التركيز والإيجاز؛ فقد راعى الشيخ في عرض القواعد المبتدئ والمنتهي، فسردها ميسرة موضحّة، مبسطة منقّحة، مع تبني أصحّ الآراء وأقواها، والتغاضي عن الآراء المتشعبة التي تُعقّد، وتغرس في المتعلم بأسا وقنوطا (انظر تياو، 2009، 20). انطلاقًا من هذا المنظور يتبين لنا أن المؤلف قد التزم في منظومته مبدأ التركيز والإيجاز في عرض الموضوعات النحوية، دون أن يخوض في ذكر الخلافات النحوية ولا التطرق إلى المسائل الصرفية؛ لأن سعادة الطلاب إنما صنفت أصلا للمبتدئين، ومن أمثلة التركيز والإيجاز كلامه على الفعل حيث قال:

إلى أربعة أنواع: جملة فعلية ، جملة اسمية ، ظرف ، جار ومجرور (شبه جملة) ، ثم دعمها بذكر الأمثلة بأسلوب بديع حتى تتضح القاعدة في ذهن المتعلم ، وتمتاز الأمثلة التي يسوقها المؤلف بالابتعاد عن الجافة المصطنعة ، والتي لا تخرج عن: ضرب زيد عمرا ، وإنما نجده يكثر من الأمثلة الحية الهادفة ، والآيات السابقة توضح طبيعة الأمثلة التي اعتمدها المؤلف.

نلاحظ من خلال الأمثلة في سعادة الطلاب أن مؤلفها الشيخ أحمد الخديم عمد إلى توظيف الأمثلة توظيفا تربويا ، رام من خلالها تثبيت بعض القيم الطيبة والصفات الحميدة في نفوس المتعلمين والطلاب ، فنجد فيها توجيهات وإرشادات خلقية منبثقة من التوجيه الديني الإسلامي ، "معتمدا في اختياره الأمثلة منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والناصح للأمة ، فانتقى بذلك أمثلة واقعية مرتبطة بماضي أمة النبي محمد ﷺ وأثار السلف الصالح؛ لما تحتوي من حقائق وقيم سامية... (اتياو ، نفس السابق). والأمثلة في هذا النمط كثيرة ، منها قوله:

كَنْقُ فَاكٌ ²⁸⁷ مِرَّ أَبَاكَ وَأَخَاكَ

إِنْ كُنْتَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَحَمَاكَ

وقوله:

وَلَنْ تَنَالَا رُشْدًا أَوْ تَقَطِّمًا

نَفْسَيْكُمَا عَنِ اللَّغَى فَالْتَقَطِّمًا

وَلَنْ تَنَالِيَ الدِّينَ حَتَّى تَسْتَرِي

جَسْمِكَ يَا زَيْنَبُ بِالتَّخْمَرِ

(287) يعني أن تنظف فاك أيها الطالب بالسواك أو أن

تنظفه من آفات اللسان ، كالكذب والغيبة والنميمة...

- التمثيل في سعادة الطلاب: يغلب فيها الطابع الأدبي وكثرة التمثيل ، وإن القارئ لهذه المنظومة يدرك تماما أن قدرة الناظم الأدبية قد أعطته ذوقا فنيا عند صياغته لها ، فهي سهلة العبارة ، جيدة الأسلوب ، متناسقة الترتيب ، عذبة الألفاظ ، واضحة المعاني ، متداولة الأمثلة ، بينة الشواهد ، بلا تكلف ، ولا تعقيد ، ولا إلغاز. وفيما يلي أمثلة تبين مزج صاحب المنظومة بين الطابع الأدبي والتمثيل في تقرير المسائل النحوية.

قوله في باب المبتدأ والخبر:

وَعَنَهُمُ الْخَبْرُ جَا قِسْمَيْنِ

أَيَّ مَفْرَدًا وَالْعَكْسَ دُونَ مَيْنِ

مَفْرَدُهُ نَحْوُ أَبِي فَقِيهِ

وَنَحْنُ غَرٌّ وَأَخِي نَبِيهِ

وغيره أربعة الأشياء

مَجْرُورُهُ كَالْخَيْرِ فِي الْقَضَاءِ

وَالظَّرْفُ نَحْوُ الْخَيْرِ عِنْدَ الْمُصْطَفَى

وَالفعل مع فاعله كُنْ ذَا اقْتِنَا

تَقُولُ أُخْتِي جَاءَ زَوْجُهَا عُمَرُ

رَابِعُهَا مَبْتَدَأٌ مَعَ الْخَبْرِ

نَحْوُ أَبِي رَوْضَتِهِ مُنَوَّرَةٍ

وَنَحْوُ أُمِّي حَالُهَا مَشْتَهَرَةٍ

نلاحظ من خلال ما سبق ذكره أن المؤلف أورد تعريف الخبر بتقسيمه إلى قسمين: مفرد وغير مفرد ، دون أن يأتي بالتعريف المنطقي الفلسفي ، وقسم غير مفرد

وكذلك توزع المعربات بالحروف إلى أربعة أنواع ، وهي: مثنى ، جمع مذكر سالم ، الأسماء الخمسة ، الأفعال الخمسة.

وقوله:

تَقُولُ إِنْ تَرَحَّمَّ وَتَعَفَّ وَتَجَدَّ

تَكُنْ مُقَدِّمًا وَقَوْمَكَ تَسُدُّ

التقسيم يبين طبيعة الناظم من حيث ربط المصطلحات النحوية بدلالاتها في المعنى.

ما يميز كتاب سعادة الطلاب هو ابتعاده عن التعريفات المنطقية التي تشتت ذهن المتعلم المبتدئ، فهو يهتم بذكر الأمثلة التي تسهم في تكوين المعرفة للمتعلم عن طريق توضيح القاعدة النحوية. وقد سلك هذا المنهج في معظم أبواب الكتاب كما سبق ذكره في باب الأفعال، حيث مثل أنماط الفعل الثلاثة بجملته: (اتق رب الورى فقد نجا من يتقي) فاتق: فعل أمر ونجا: فعل ماض ويتقي: فعل مضارع. كما نرى نفس ذلك في تمثيله لأحرف المضارعة، أجمله في فعل "نأيت" بقوله:

أربعةٌ يجمعها في القيد

نَأَيْتُ عَنْ إِبْلِيسَ جَمَّ الكَيْدِ

فحرص على عدم الفصل بين النحو واللغة، ونظر إلى قواعد اللغة من حيث ارتباطها بالمعنى. ولذلك فقد عني بإيراد الأمثلة الكثيرة السهلة الاستعمال محاولاً تقويم التراكيب اللغوية. وهكذا فنحن نستطيع أن نقول إن الشيخ في منظومته سعادة الطلاب كان ينتهج منهجاً عملياً تطبيقياً غرضه تقويم اللغة المستعملة، سواء في التعبير الكتابي أو الشفوي، دون أن يثقل ذهن المتعلم بكثير من القواعد النحوية.

وقد رام الناظم من خلال منظومته توضيح النحو في ذهن المتعلم؛ لذا عنون كتابه باسم ينطبق على مسماه، فاتسم أسلوبه بالوضوح في المعنى، وعدم التعقيد في المبنى؛ مما أدى إلى تحقيق الهدف من تأليفه وهو تقريب النحو من المتعلمين. كما أنه يمكننا أن نبدي قراءة في المحتوى النحوي وترتيبه لسعادة الطلاب، أما بخصوص ما يتعلق بالمحتوى النحوي فإن منظومة سعادة الطلاب تتميز بالشمول والاختصار؛ إذ شملت معظم الأبواب النحوية التي

ومحصول القول فيما يتعلق بالشيخ ومنظومته أنه كان ذا ثقافة واسعة وأسلوب عربي أدبي سليم ومملكة لسانية كفيلة، مكنه ذلك على استيعاب النحو العربي بطواهره وقضاياه التركيبية إلى جانب الأمثلة والشواهد المتنوعة الحيّة وصوغها في هيكل منظومة دون أن يفلت من الوزن أو القافية.

يؤكد ابن حزم (1987، 66) في رسالته "مراتب العلوم" العلاقة الرابطة بين النحو واللغة، ويرى أن النحو يرتبط ارتباطاً كلياً بالمعاني، وهذا ما نراه واضحاً في منظومة سعادة الطلاب للشيخ؛ إذ نظر إلى اللغة باعتبارها وحدة متكاملة لا يمكن أن تفصل عن النحو؛ لذلك ربط الشيخ النحو بالمعنى، ومما يبين ذلك حديثه عن تقسيم الأفعال من حيث الزمن إلى ثلاثة أنواع، فيقول:

ينقسم الفعل إلى أفعالٍ

ثلاثةٍ بقول كلِّ تالٍ

ماضٍ مضارعٍ وأمرٍ كاتقٍ

ربُّ الورى فقد نجا من يتقي

يعني أن الناظم انقسم الأفعال إلى ثلاثة أضرب: ضرب منها أفعال ماضية قد ذهبت وتقضت، كقولك: كتب وعلم. والضرب الثاني: أفعال مستقبلية، منتظرة لم تقع بعد أو واقعة في الوقت الذي أنت فيه لم تمض ولما تمض بعد، كقولك: يصلي ويأكل. والضرب الثالث أفعال أمر: الدالة على طلب وقوع الفعل من الفاعل المخاطب، كقولك: تعلم واجتهد. وهذا

نجد المؤلف يطلق على بعض المسائل المعروفة مصطلحات أخرى، ومن ذلك: إطلاقه على المفعول المطلق مصطلح "المصدر"، وإطلاقه على المفعول فيه مصطلح "ظرف الزمان والمكان" وإطلاق قضية (لا) فقط، دون أن يضيف "النافية للجنس". إضافة إلى ما سبق ذكره، فإن مفهوم حروف الجر عنده واسع فيشمل إضافة إلى حروف الجر الظروف والأسماء التي ليست بحروف ولا ظروف.

هذا وقد اتبع المؤلف المنهج الوصفي في تعييده فنظر إلى الوظيفة النحوية، ولم ينظر إلى العمل النحوي فقط، حيث اعتبر كثيرا من الظروف والأسماء التي ليست بحروف ولا ظروف من جملة عوامل الجر. فقد ذكر من الظروف مصطلحات (أمام، خلف، مع، وراء، قدام، فوق، تحت، تلقاء، عند، إزاء، حذاء، ثم). ومما ذكره من الأسماء التي ليست بحروف ولا ظروف: (غير، سوى، سوى). فالمؤلف ذكر هذه الظروف والأسماء التي ليست بظروف ولا حروف "لأن هذه المصطلحات تؤدي نفس الوظيفة التي تؤديها حروف الخفض (الجر) مثل قولنا: الكتاب على الطاولة أو الكتاب فوق الطاولة" (انظر حلمي، 1995، 53).

لا نجد في منظومة سعادة الطلاب بعض المصطلحات النحوية الشائعة عند المحدثين مثل: العلامات الأصلية والعلامات الفرعية فعدم ذكر الناظم لهذه المصطلحات كان بسبب النظم الذي اضطره إلى ذلك، ومن أمثلة ذلك قوله في باب علامات الإعراب:

لِرَفْعِ دَالٍ مِنْ عِلَامَاتٍ وَفَتْ

ضُمُّ وَوَاوِ أَلِفٍ نُونٌ ثَبَّتَ

لِلنَّصْبِ هَاءٌ مِنْ الْعِلَامَاتِ أَنْمِيَا

أَيَّ فَتْحَةً وَأَلْفًا كَسْرًا وَيَا

يحتاجها المتعلم غير المتخصص، مع اختصارها للقواعد النحوية، وذلك بخلوها من التعريفات غالبا، وبعض الأبواب المعروفة في النحو التعليمي مثل (ما، لات، إن المشبهات بليس، الاختصاص، التحذير، الإغراء، أسماء الأفعال...). ويبدو أن المؤلف كان على إدراك وعلى وعي بإهمال هذه الموضوعات؛ فربما رأى أن عرضها في المنظومة لا يتناسب مع المستوى الذي أُلّف الكتاب من أجله. وهذا الاختصار على الموضوعات الأساسية له فائدة تعليمية تتمثل في عدم تشتيت ذهن المتعلم بكثرة القضايا النحوية التي يتعلمها.

وأما فيما يتعلق بترتيب المحتوى، فقد بنى الشيخ منظومته على نمط المعمولات التي هي أثر للعامل، فقام بجمع الأشياء المتشابهة تحت موضوع واحد، ويبدو أن هذا الترتيب الذي سلكه الناظم في منظومته، يُعد من قبيل التعليم المناسب لفكر المتعلم؛ لما يتسم به هذا الترتيب من جمع للمسائل المتشابهة في أبواب "وهذه النظرة القائمة على محور المعمولات كانت نظرة تعليمية مناسبة للفكر، لما فيها من ترابط بين المسائل في الأبواب، وذلك يساعد المتعلم على الترتيب الذهني وعلى التذكر أيضا" (انظر ممدوح، 2000، 265).

على ضوء ما سبق ذكره من ملاحظات على مستوى المبنى والمعنى لهذه المنظومة النحوية؛ فإن أقصى ما يمكن أن توصف به منظومة سعادة الطلاب هو أنها نحو يلائم المتعلمين والمتخصصين أيضا، كما أنها تعد -عموما- وسيلة ناجحة في ميدان التعليم، فهي تعبر عن مدى تمكن صاحبها من النظم وقدرته على جودة الأداء وإثبات كفاءته في مجال تعليم النحو.

5- المصطلحات النحوية المستعملة

فتلاحظ من خلال البيت الرابع غياب المصطلح المؤلف في كتب النحو وهو "الجر" وقد ذكر الناظم مصطلح "الخفض" وهو مصطلح شائع استعمله كثير من النحاة القدماء والسبب في غيابه؛ هو عدم سماح النظم بظهوره. مما نستنتج أيضاً من خلال الأبيات السابقة حضور التعريف البنيوي الشكلي في التعريفات، وقد لجأ الناظم إلى هذا النوع من التعريف كثيراً في منظومته.

الخاتمة

لقد أسفرت القراءة التحليلية لمنظومة سعادة الطلاب للمؤلف الشيخ أحمد الخديم عن أبرز الأبعاد اللسانية التربوية لها؛ فقد امتازت بالوضوح في المعنى وعدم التعقيد في المبنى، والسهولة في عرض المادة النحوية على المتعلم؛ مما أدى إلى تحقيق الهدف من تأليفه وهو تقريب النحو من المتعلمين في طابع مخفف، ويمكن إبراز أهم نتائج هذه الدراسة والتي تتعلق بالمنهج اللساني التربوي الذي سلكه المؤلف في منظومته ما يلي:

- تبنيه للطريقة الاستقرائية في عرض المادة النحوية على المتعلم.

- تبنيه للمنهج الوصفي في عرض أبواب النحو وابتعاده عن التعليل والتفسير.

- طريقتة في التحليل والإعراب حيث ابتعد عن الإعراب الصناعي وركز على العرض الوظيفي للعناصر النحوية.

ولم يزالوا يطلبون رُشداً *** فلا تزالوا تطلبون مجداً
ولن تنالي الدين حتى تستري *** جسمك يازينب بالتخمر
وحذف عرف العلة علامة للجزم في الفعل المضارع المعتل
الأخر، وقد مثل ذلك الناظم في البيت التالي:
تقول لم أسه ولم أنس ولم *** أعص إلهي تعالى باللمم

خَمَسٌ بِحَذْفِ النُّونِ أَمَا فَتَحُ

فَبَانَ فِي جِيمٍ أَتَاكَ فَتَحُ

وَأَعَدُّدَ عِلَامَاتٍ ثَلَاثًا يَا فَتَى

لِلْخَفْضِ وَهِيَ كَسْرَةٌ يَاءٌ أَتَى

وَفَتْحَةٌ وَالْكَلُّ مِنْهَا خُصِّصَتْ

بِمَوْضِعٍ عَنْ غَيْرِهَا وَأَنْفَرَدَتْ

أَمَا السُّكُونُ فَعِلَامَةٌ يَكُونُ

لِلْجَزْمِ فِي فِعْلٍ مُضَارِعًا يَبِينُ

وَالْحَذْفُ فِي الْمُعْتَلِّ إِخْرًا يَكُونُ

عِلَامَةٌ لِلْجَزْمِ عِنْدَ الْمُفْلِقِينَ

فقد استعمل الشيخ في هذه الأبيات مصطلح "علامات" ويقصد بها العلامات الإعرابية التي تخص بالرفع والنصب والخفض والجزم. ويمكننا تقسيمها إلى العلامات الأصلية وهي: الضمة، الفتحة، الكسرة، السكون والعلامات الفرعية وهي: الألف، الواو، النون، الكسرة الياء، الحذف²⁸⁸.

(288) ومما سلكه المؤلف في منظومته تيسيراً على المتعلمين، أنه لا يفصل في ذكر علامات الإعراب، كما اتضح ذلك في الأبيات أعلاه، حيث يكتفي المؤلف بذكر العلامات الأصلية للإعراب، فلا توجد في منظوره علامات فرعية أصلاً، فالعلامات كلها أصول؛ فيجعل الواو علامة للرفع في الأسماء الخمسة، وجمع المذكر السالم، والألف علامة للرفع في المثني، والنون علامة للرفع في الأفعال الخمسة، والياء علامة للجر في الأسماء الخمسة، وجمع المذكر السالم، والألف علامة للنصب في الأسماء الخمسة، والياء علامة للنصب في المثني وجمع المذكر السالم، والكسرة علامة للنصب نيابة عن الفتحة في جمع المؤنث السالم، وحذف النون علامة للنصب أو الجزم في الأفعال الخمسة إذا دخلت عليها عوامل النصب أو الجزم. وقد أعطى الناظم أمثلة في ذلك بقوله:

قائمة المصادر والمراجع

- ابن جني، أبو الفتح عثمان (1954) المنصف شرح تصريف المازني. ج1، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، وزارة المعارف، ط1، مصر.
- ابن حزم الأندلسي، أبو محمد (1987) رسائل ابن حزم الأندلسي، رسالة مراتب العلوم. ج4، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت.
- امباكي، الشيخ أحمد بمبا، سعادة الطلاب وراحة لطلاب الإعراب. مكتبة الشيخ أحمد بمبا، طوبى دار القدوس، سنغال.
- تياو، أبو مدين شعيب (2009) فتح الوهاب في شرح سعادة الطلاب. مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، الرباط.
- الجاحظ، عمرو بن بحر (1964) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ج3، ط1، مكتبة الخانجي، مصر.
- حلمي، خليل (1995) العربية وعلم اللغة البنيوي، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر.
- الراجحي، عبده (1995) علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- صالح، عبد الرحمان الحاج (1974) أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة

- طبيعة حدوده وتعريفاته؛ فقد لجأ إلى التعريف بالمثل الوظيفي والبنيوي الذي يعتمد على الوصف وكثرة التمثيل، وابتعد عن التعريف المنطقي.

إضافة إلى ذلك، فقد امتازت المنظومة بكثير من المبادئ اللسانية التربوية؛ منها اكتفاء الشيخ بالأسس والقواعد النحوية العامة مراعاة لمستوى المتعلمين، وابتعاده عن التفصيلات والخلافات النحوية التي من شأنها أن تشتت ذهن المتعلم بذكر القضايا النحوية التي لا تتناسب مع مداركه العقلية، إضافة إلى ترتيبه لمحتوى منظومته على نمط المعلومات التي هي أثر للعامل، واتباعه لمنهج الإجمال ثم التفصيل في عرض القواعد النحوية، وإهماله لبعض أبواب النحو مراعاة لمستوى المتعلمين، واعتماده مبدأ الإحالة إلى قواعد وأحكام سابقة. وإكثاره من الأمثلة التي توضح القاعدة للمتعلم. ومن منهج الناظم في منظومته الاعتماد على الاختصار والإيجاز، وأيضا مزجه بين الطابع الأدبي والتمثيل في تقرير المسائل النحوية، وقد عمد الشيخ في منظومته إلى توظيف الأمثلة توظيفا تربويا... والحاصل أن منظومة سعادة الطلاب تحتوي على جملة من الأبعاد اللسانية التربوية، وهي مفيدة في العملية التعليمية، إذا ما أحسن القائمون على مناهج النحو استثمارها في بناء المناهج النحوية.

العربية ، مجلة اللسانيات ، العدد الرابع ،
معهد العلوم اللسانية والصوتية ، الجزائر.

- ممدوح ، عبد الرحمان (2000) المنظومة
النحوية دراسة تحليلية. درا المعرفة
الجامعية ، القاهرة ، مصر.